

البخيل لموليه

بمّتلّم

الدكتور على درويش

مدرس الأدب الفرنسى بجامعة عين شمس

(١)

هناك تواريخ ليس من حق البشرية أن تجهلها ،
هى تلك التى تشير إلى أهم الأحداث التى تخللت حياة
العابرة ؛ ذلك لأن الإنتاج الإنسانى الفذ لا يجب أن
يُنسى ظروف الحياة التى نبع منها ، والتى يمكن أن
تكون زاخرة بالعبر والدروس . وحياة مولير تضم
بعض هذه التواريخ . إنها تقع فى نصف قرن من
الزمان . وإذا كان التاريخ قد سجل بدايتها (١٦٢٢) ،
فلأنه أُجبر على تسجيل نهايتها (١٦٧٣) ! فها أهمية
تاريخ ميلاد إنسان لم يترك أثراً يُشعر بفداحة الرزء
حين يموت ؟ وبين عام ١٦٢٢ الذى أدرك فيما بعد أنه
كان إيذاناً بقرب مولد الكوميديا الحقيقية فى فرنسا ،
وعام ١٦٧٣ الذى اتضح فيما بعد كذلك أنه كان
نذيراً بموت هذه الكوميديا . . أقول إن بين هذين
التاريخين تقع عدة تواريخ أخرى بالغة الأهمية فى حياة
الأدب والفن . . . هى تلك التى اتحف فيها مولير
الأدب والمسرح العالمين بسبع أو ثمان من أروع
رواياته .

وحياة مولير لا تزال موضوعاً لكثير من الآراء
المتناقضة ، وربما كان من العوامل التى لا تعين على

معرفة الكثير عنها بالدقة خلو إنتاجه من التفاصيل التى
تتعلق بها . . . كل ما نعرفه عن طفولته وصباه هو أن
جان باتيسد بوكلان (Jean-Baptiste Poquelin) ولد
فى باريس . . وأن أباه كان يجمع بين الاتجار فى
السجاد (مورد القصر) ووظيفة خادم للملك (هذه
الوظيفة متوارثة فى الأسرة منذ وقت طويل) . . وأنه
درس على يد اليسوعيين فى كلية كليرمونت Clermont
(تسمى الآن ليسيه لويس الأكبر) ، ثم درس الحقوق
فى أورليان (Orléans) ، كما تتلمذ فى دراسة الفلسفة
على جاساندى (Gassendi) الذى حبه فى الشاعر
اللاتينى لوكريس (Lucrece) المتميز بأبيقوريته
(ترجم مولير بالتعاون مع زميله فى الدراسة هسنو
Hesnaut أشعار لوكريس - ضاعت الترجمة
اللهم إلا بعض فقرات منها عن أوهام الحب دسها
مولير فى مسرحيته «المزمت» (Le Misanthrope))
وأنه اشتغل بالحماماة فترة قصيرة لم يترافع خلالها سوى
مرة واحدة . . وأنه اندفع نحو المسرح بميل طبيعى
قوى لم يستطع مقاومته . . ويقال إنه فقد أمه وهو فى
الحادية عشرة من عمره ، وإن أباه كان فظاً بخيلاً ،
وإن جده لأمه لويس كريسيه (Louis Cressé) هو

الذى غرس فيه حب المسرح ، إذ كان يصطحبه دائماً إلى المسارح التى يغشاها . . وفى كل مرة كان جان بوكلان يشهد فيها إحدى الروايات كان يعود بعدها إلى بيته ممتقع اللون ، ويغرق فى تفكير عميق يزيده سخطاً على مهنته (أخذها عن أبيه بالإنابة) . . ويقال كذلك إنه حين قرر التفرغ للمسرح لقي معارضة شديدة من والده الذى لجأ إلى شتى الوسائل لثنيه عن عزمه : بذل له الوعود ، ثم عمد إلى الوعيد ، ثم عهد بمهمة انتزاع فكرة المسرح من ذهنه إلى أستاذ قديم له يدعى جورج بينيل (Georges Pinel) . والطريف — وهذا يقال أيضاً — أن الفتى لم يكتف بالرسوخ أمام مساعى معلمه القديم ، وإنما وفق فى اقناعه بالعمل معه !

وفى يونيو ١٦٤٣ (أو فى يونيو ١٦٤٤ — قلت إن الآراء متباينة) اتفق «جان باتيسد» مع ثلاثة أفراد من أسرة بيجار "Béjart" (جوزيف ومادلين وجنوفيف) وعدد آخر من الرفاق (سبعة) ، وأستاذه القديم بينيل (الذى سمي نفسه لاكوتير La Couture) على إنشاء فرقة مسرحية أطلقوا عليها اسم «المسرح الفخم» (L'illustre Théâtre) . وهنا سمي جان باتيسد نفسه «موليير» (Molière) . . وظلت الفرقة تستأجر المسرح تلو المسرح ، وتصاب بالاختفاق تلو الاختفاق إلى أن أزهقتها الديون ، واستحال بقاءها فى باريس . كان موليير مديرها الفعلى بالرغم من حداثة سنه . ويقال إنه سجن مرتين بسبب الديون التى كانت تنقل كاهلها (كانت هناك رعاية غامضة تؤدى إلى سرعة الإفراج عنه) . . وجمعت الفرقة أمتعته ولاذت بالريف فى أواخر عام ١٦٤٥ ، ولم ترجع إلى باريس إلا بعد ثلاثة عشر عاماً عرفت خلالها حياة التجول . . وأعجب بموليير أمير كونتى (Conti) ، زميله القديم فى المدرسة فأراد أن يعينه سكرتيراً له ، ولكنه رفض بدافع من حبه لمهنته ، وتعلقه بفرقة ، وحرصه

على استقلاله . وفى إحدى جولات الفرقة فى روان (Rouen) حصل موليير على إذن من دوق أورليان (Orléans) — شقيق الملك — بأن يمثل فى باريس أمام الملك . وفى ٢٤ أكتوبر ١٦٥٨ قدمت الفرقة فى قصر اللوفر مأساة لكورنى "Corneille" (Nicodème) ، وملهاة هزلية من تأليف موليير ، هى الدكتور المحب (Le Docteur amoureux) . وأعجب لويس الرابع عشر بالفرقة ، فسمح لها بأن تستقر فى باريس ، وبأن تسمى نفسها «فرقة شقيق الملك» ، وأن تقدم حفلاتها فى مسرح البوربون الصغير (Théâtre du Petit Bourbon) بالتناوب مع فرقة الايطاليين . وحين أزيل مبنى هذا المسرح فى عام ١٦٦٠ تغير اسم الفرقة بأذن من الملك فصار «الفرقة الملكية» وانتقلت إلى «صالة» ملحقة باللوفر (Palais-Royal) كانت مخصصة لحفلات القصر ، كما كانت تعار فى بعض الأحيان لهذه الفرقة أو تلك من الفرق الباريسية . . وظل موليير يمثل فيها إلى أن توفى ، فاتحدت فرقته مع فرقة ماريه (Troupe du Marais) ثم حدث توحيد جديد بأمر الملك بادماج فرقة بورجونى (Bourgogne) ، فكان ميلاد فرقة الكوميدى فرانسيز (La Comédie Française) أو «المسرح الفرنسى» (١٦٨٠ — بعد وفاة موليير بسبع سنين) .

فى عام ١٧٤٠ سئلت ابنة الممثل الكوميدى پواسون (Poisson, 1630-1690) عن أوصاف موليير ؛ وكانت فى شيخوختها ، واعتمدت فى ردها على ما وعته ذاكرتها ، قالت : «ليس بالضخم ولا بال نحيف . . أقرب إلى الطول منه إلى القصر . . يمشى بخطى ثابتة . . أساريه جادة . . أنفه وفه كبيران . . شفتاه غليظتان لونه خمرى . . حاجباه كثيفان . . دمث ، مجامل ، كريم . . » ولتوقف قليلاً عند هذه الصفات الأخيرة ، فلقد أكدتها فعلاً شهادة المعاصرين . . إن لحسن حظ الإنسانية أن تقترن العبقرية فى معظم الأحيان بالسمو

القدر لأبيه في شيخوخته ، لم يتردد في أن يمد إليه يد المساعدة . . لقد تناسى أن أباه هذا كان قد ضمن عليه بجزء من ماله الوفير يوم كان المسكين يتخبط في مستهل حياته العملية ، ويوم تركه يدخل السجن الذى زج به فيه الدائنون .

ولقد وهب موليير موهبة دقة الملاحظة منذ صباه ، ومن المؤكد أن إقامته الطويلة في الريف شحذت هذه الملكة فيه ؛ ويقال إنه - عندما كان في بيزيناس (Pézénas) - كان يواظب على الجلوس يوم السبت من كل أسبوع عند حلاق يدعى جيلى (Gély) ليدرس أحاديث عملائه وأسارير وجوههم ، وليغذى - بفضل ذلك - ذخيرته بالتفاصيل المتعلقة بالنماذج البشرية المبتكرة . . ولم يكن - كما قيل - ينتقل « بدون عينيه وأذنيه » . . وكان اهتمامه بدراسة الناس يتضاعف على مر الأيام إلى حد أن صديقه بوالو (Boileau) أطلق عليه « المتأمل » . . ودقة الملاحظة كانت تقترن لديه بقدرة نادرة على سبر غور الأشياء ؛ من هنا أولع بتشريح القلب الإنسانى ؛ ومن هنا جاءت شخصيات مسرحياته مليئة بالحياة ومثيرة للمتعة . . ويقال في هذا الصدد إنه لم يدخل في مسرحياته شخصيات لم يستق ملاحظتها من تجاربه الخاصة ، وإنه لم يحاول إخضاع الآخرين لتأثيرات غير تلك التى خضع لها هو (استعار مثلاً من شخصية أبيه بعض ملامح شخصية البخيل) .

وزواج موليير من أخطر الأحداث التى أثرت في حياته . كان في الأربعين من عمره حين تزوج من فتاة تصفه بثلاثة وعشرين عاماً كان قد عرفها وهى في مهدها.. هذه الفتاة هى أرماند بيجار (Armande Béjart) شقيقة زميلته في الفرقة مادلين (Madeleine) . . ولم يكن فارق السن هو المظهر الوحيد لعدم توافق الزوجين ، فقد كانت أرماند - وهنا العنصر الهدام في حياتهما - تافهة إلى حد الحق ، عابثة إلى حد التهتك . وكانت حياة موليير معها سلسلة من الخلافات العنيفة ، ومصدراً

الخلقى . كان موليير معتل الصحة ، تعساً في حياته الزوجية ، بنوء بشتى أنواع الهموم ؛ ولكنه كان كبير القلب وكفى . . يقول عنه زميله في التمثيل لاجرانج La Grange إنه كان يتميز بجميع الصفات التى تجعل منه رجلاً شريفاً حقاً . . . ويكتب ممثل آخر اسمه بريكور (Brécourt) بعد وفاة موليير مسرحية من وحي حياته « ظل موليير » (L'Ombre de Molière) يقول فيها على لسان « أورونت » (Oronte) : « لقد كان (موليير) في حياته الخاصة كما كان في مغزى مسرحياته : شريفاً ، صادق الحكم ، إنساناً ، صريحاً ، كريماً . . . » . . ولعل من أبرز صفاته كذلك صداقته النادرة ؛ وتاريخ الأدب يسجل أواشج الود الخالص الأكيد التى ربطت بينه وبين كثيرين من كبار معاصريه أمثال بوالو (Boileau) ورأسين (Racine) وشابل (Chapelle) ولافونتين (La Fontaine) وكورنى (Corneille) والمصور مينار (Mignard) . . بل يسجل كذلك أنه لم يمزق صداقته لرأسين حين تنكر له مع أنه كان قد أحاطه برعايته في مستهل حياته الأدبية (انزع رأسين من فرقة موليير واحدة من أكبر ممثلاتها هى الآنسة دى بارك (Mlle du Parc) ، كما استرد منها تراجيديته « الإسكندر » (Alexandre) وعهد بتمثيلها إلى فرقة أخرى منافسة هى فرقة بورجونى (Bourgogne) . . .) .

وكان موليير كريماً فعلاً وإلى حد السخاء ، تدل على ذلك شواهد عديدة تسجل أنه أعان في حياته أناساً كثيرين . بل إن هذا السخاء اتخذ شكلاً أسطورياً: يحكى أنه صادف ذات مرة في الطريق رجلاً معوزاً قدس في يده قطعة نقود . . ولم يكذب يدبر ظهره حتى نظر الرجل إليها فوجدها من الذهب . . فأسرع إلى موليير وقال له : « لعلك لم تتعمد اعطائى هذه القطعة الذهبية ، ولذا فانى أردتها إليك » . . ولكن موليير رد عليه قائلاً : « خذ يا صديقى ، هاك قطعة أخرى » وصاح قائلاً : « أين ستعشش الفضيلة؟ » . . وحين تبهم

لتهجمات جائرة . . وكثر القيل والقال ، وتواترت الإشاعات إلى حد أن مثلاً بفرقة بورجوني (Bourgogne) (المنافسة لفرقة مولير) بعث إلى الملك برسالة اتهم فيها مولير بأنه متزوج من ابنته التي أنجبها من خليلته السابقة مادليز بيجار ! . . على أن الشيء الذي يعنينا هو أن زوجة مولير لم تكن جديرة به ، وأن بعدها عن مستوى عبقريته وعبثها الدنيء قد سمها حياته وأصاباه بتعاسة دائمة .

وظل مولير ينوء بحياته الخصبية والمريرة معاً : يدير أكبر فرقة مسرحية في باريس ، ويؤلف لها المسرحية تلو الأخرى في سرعة فائقة (ثلاث مسرحيات في النصف الأول من عام ١٦٦٨) ، ويقوم بتمثيل الدور الأول في كل منها . . وكل ذلك في جو خائق من القلق والضيق يضاعف تسممه التهاب رئوى وسعال حاد متقطع . . وقبل وفاته بشهرين أشفق عليه صديقه بوالو ، فحاول اقناعه بالكف عن التمثيل وبالاكتفاء بالتأليف ، ولكن مولير رفض أن يتخلى عن فرقته ، وأن يتوقف عن تأدية رسالته كاملة . . وأقبل ذلك اليوم المشئوم في حياة الأدب والمسرح ، ١٧ فبراير ١٦٧٣ . . كانت « الفرقة الملكية » تمثل مسرحية « مريض الوهم » للمرة الرابعة . . اشتدت العلة على مولير وهو يقوم بدوره بشكل لحظه الجمهور ، ولكنه بذل من الجهد الجهد ما مكنه من مواصلة دوره حتى نهايته . . وهنا نقل إلى بيته ، ولم يكد يأوى إلى مضجعه حتى أخذ سعاله يتضاعف في عنف أدى إلى انفجار أحد شرايين رئتيه ، ففقد النطق ، وتدفق الدم من فمه ، ثم قضى نحبه في نفس الليلة . . وظل رجال الدين حانقين عليه حتى بعد وفاته إذ بقيت مسرحيته « طرطوف » ماثلة في مخيلاتهم : تباطأ القس الذي استدعى في المحجى ولم يصل إلا بعد إلحاح طويل ، وحين كان مولير قد فارق الحياة . . ورفضت كنيسة « سانت أوستاش » (Saint-Eustache) أن يدفن كالمسيحيين ،

وتخرج الموقف ، واضطرت زوجته إلى الالتجاء إلى الملك ملتزمة منه التدخل لدى كبير أساقفة باريس . ونجحت مساعي لويس الرابع عشر بعض النجاح إذ أذنت الكنيسة بالدفن على أن يتم ليلاً بدون صلاة على الجثمان ولا احتفال ديني ! . . سخرية من سخریات القدر ! ولكن أفضع منها أن يحتوى يوم العبرى - كيوم كل الناس - على أربع وعشرين ساعة ، وأن تنتهى حياة عبقرى كمولير وهو في الواحد والخمسين من عمره ! !

(٢)

من الغريب أن مولير ، وهو خالق الفن الكوميدي الحقيقي في فرنسا ، كان يميل إلى التراجيديا ، وربما كان مرد ذلك إلى تعاسته في الحياة . . إلا أن مأساته « دون جارسيا دو نافار » (Don Garcia de Navarre) أصيبت بفشل ذريع كان بمثابة إنذار حض مولير على العدول عن التراجيديا . . والحق أنه خلق للفن الملهوى : حدث حين عاد بفرقة إلى باريس إثر رحلته الطويلة في الريف أن مثل مسرحيته الشهيرة « المتحذلقات المضحكات » (Les Précieuses ridicules) وإذا برجل مسن لا يمالك نفسه من الاعجاب فيطلق هذه الصيحة التي دوت في أرجاء المسرح : « تشجع ، تشجع يا مولير ! ها هي الكوميديا الحقيقية » . . لقد كانت تلك المسرحية تبشر بثورة من أجل الذوق السليم . . هذا العبقرى الذي صور عادات عصره ، اكتشف في الوقت نفسه خبايا النفس البشرية ؛ أدبه إذن عالمي بقدر ماهو فرنسي ؛ يقول سانت بييف (Sainte-Beuve) « إن أهم خصائص عبقرته هي الإنسانية الأبدية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتصوير عادات عصره ، وإن ملابس شخصياته تخفى تحتها الإنسان في كل العصور » .

ومولير يختلف اختلافاً بيناً عن كل من سبقه من

بما خلق من نماذج بشرية تصور طبيعة الإنسان في أبرز ملامحها . . .

ويختلف مولير كذلك عن كتاب المسرح في العصور الوسطى لأن المسرح في تلك الحقبة كان دينياً في جوهره . . ويختلف عن كتاب القرن السادس عشر ، لأن كوميديا هؤلاء الكتاب ، صحيحاً لم تكن مصطبغة بصبغة دينية ، ولكنها كانت في دور التكوين بحيث يستحيل عقد أية مقارنة بينها وبين فن مولير الأصل . . ويختلف عن أسلافه المباشرين من مقلدي المسرح الإسباني أمثال هاردي (Hardy) وتيوفيل (Théophile) وسكوديري (Scudéry) وسكارون (Scarron) ؛ لأن إنتاجهم كان ينبع من الخيال أكثر من اعتماده على الملاحظة ، ويخلو من تحليل للشخصيات ، ويزخر بالمواقف الغريبة المعقدة التي يتحتم على الإنسان أن يلغى عقله إن أراد تصديقها . . ثم إنه يختلف عن كورني (Corneille) صاحب ملهاة «الكذاب» ، بالرغم من أن مولير يعترف بأن هذه المسرحية هي التي دلته على الطريق الحقيقي الذي كان عليه أن يسلكه . شتان بين كوميديا مولير وكوميديا كورني ؛ فهذه الأخيرة تصور عادات بشرية تختلف باختلاف الناس ، وتضم مواقف غريبة ملغزة ، وشخصيات لا تتكلم باسم خالقها وإنما كثيراً ما يتكلم المؤلف باسمها .

(٣)

كتب مولير قرابة ثلاثين مسرحية أجودها —
— «عدا» «البخيل» — «المتحذلقات المضحكات»
(Les Précieuses ridicules) ، ١٦٥٩ ؛ «طرطوف»
(Tartuffe) ، ١٦٦٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ؛ «المزمت»
(Le Misanthrope) ، ١٦٦٦ ؛ «البرجوازي الشريف»
(Le Bourgeois gentilhomme) ، ١٦٧٠ ؛ «النساء العالمات» (Les femmes savantes) ، ١٦٧٢ ،

كتاب المسرح ؛ يختلف عن كتاب الإغريق والرومان ، وعن كتاب العصور الوسطى والقرن السادس عشر ، وعن الكتاب الذين سبقوه مباشرة ؛ يختلف مثلاً عن أرسطوفان ، لأن أرسطوفان صور شعب أثينا أكثر من تصويره الإنسان العالمي ، بشجاعة نادرة وهجاء بليغ ، الأمر الذي يمنح مسرحياته قيمة تاريخية تجعل منها ما يشبه الوثائق عن عهد صاحب من عهود الديموقراطية الأثينية . . أما مولير فقد تصدى للعيوب والردائل التي تصيب البشرية في جميع البلاد وجميع الأزمان . . ويختلف عن بلوت (Plaute) لأن كوميديا بلوت — هي الأخرى — هجاء اجتماعي ينصب على إطار محلي ، هو المجتمع الروماني في عصره . صحيح إن لهذه الكوميديا طابعاً مبتكراً هو ثأرها للعبيد من سادتهم (عزا بلوت إلى العبيد الذكاء والشرف ، وإلى السادة الحمق وأحياناً الخسة) ، إلا أن إنتاج مولير يدخل في إطار أوسع يضم القصر والمدينة والقرية ، فضلاً عن فهو طويل يمتد على العديد من آفات البشرية .

نعم يقال إن ميناندر (Ménandre) درس القلب الإنساني واستطاع أن يصور الحياة البشرية ؛ إلا أن أباطرة بزنطة حرقوا أهم إنتاجه استجابة لتوجيه رجال الدين ؛ إذن فن العبث أن نبحت عن أوجه شبه بينه وبين مولير أو أن يزعم أحد أن مولير قد اقتدى به . . ويختلف عن تيرانس (Térence) لأن كوميديا تيرانس ينقصها الابتكار والجسارة ، وتشبه الخرافات اليونانية أكثر من تصويرها للمجتمع الروماني في عهد (Scipion) و (Lélius) ، وتصلح للقراءة أكثر من صلاحيتها للتمثيل . . إن مولير يتفوق على هؤلاء جميعاً لأن لديه أبرز خصائص فنونهم جميعاً ويزيد : فنه هو يتميز بنزعة هزلية كنزعة (أرسطوفان) ، وبجسارة ومرح شبيهين بجسارة ومرح (بلوت) ، وبرقة تذكر برقة (تيرانس) ؛ ولكنه يمزجهم جميعاً

« مريض الوهم » (Le malade imaginaire) ،
١٦٧٣ .

١ - « المتحذلقات المضحكات » :

الأول وتوسلات الفتاة المسكينة . وتتدخل زوجة الأب لدى « طرطوف » نفسه عليها تنزع من ذهنه مشروع الزواج بعد أن أخفقت في أن تثني زوجها عن عزمه . . هنا يستغل « طرطوف » تقابله مع زوجة ولى نعمته فراودها عن نفسها ! . ويرقى حديثهما إلى مسمع شقيق الفتاة الذى كان على مقربة من الباب فيسرع إلى أبيه ينبئه الخبر . . ويسأل الرجل الغر « طرطوف » أن كان ما سمعه حقاً فيرد بالإيجاب ، ويقر أنه شخص نحس يسحق الطرد . . ويعود رب الأسرة إلى الاشتاق عليه ، ويتهم ابنه بأنه تجنى على « الرجل المسكين » ، ويطرده من بيته ، ويعلن أنه يهب هذا الأخير كل ما يملك . . ويفكر الفريق المناهض في حيلة تخلص « اورجون » من سلطان « طرطوف » عليه ، وتقنعه زوجته بأن يختفى تحت منضدة ليستمع بنفسه ما سيدور بينها وبين « طرطوف » من حديث . . وتستدعى « المير » المناق الوضيع فراودها من جديد عن نفسها . . هنا يفيق « اورجون » من سكرته ويأمر « طرطوف » بمغادرة بيته ، ولكن « طرطوف » يتجبر ويعلن أنه هو الذى فى وسعه أن يطرد الأسرة كلها . . ويتذكر « اورجون » أن فى حوزة « طرطوف » صندوقاً يحتوى على وثائق خطيرة يمكن أن تقوده إلى المحاكمة إن استغلها الرجل الدنيء . ويخرج « طرطوف » ثم يعود مصطحباً أحد رجال الشرطة ، ويطلب إليه أن يلقى القبض على ولى نعمته . وهنا المفاجأة الكبرى : إن رجل الشرطة يقبض عليه هو ! ذلك لأن « طرطوف » أحد المجرمين الخطرين الفارين من وجه العدالة . أما « اورجون » فقد عفا عنه الملك تقديراً لخدماته السابقة . . وهذه المسرحية كانت فى البداية من ثلاثة فصول حين مثلت للمرة الأولى أمام لويس الرابع عشر ، وقد أثارت ضيق رجال الدين الذين نادى أحدهم بحرق مولير حياً ، الأمر الذى أدى إلى حظر تمثيلها مرتين . . واستمرت الحملة التى

مسرحية بالنثر من ثلاثة فصول ، ملخصها : أن شريفين شابين من أشرف الريف قدما إلى باريس ليتزوج أحدهما من ابنة برجوازي ثرى ، وليتزوج الآخر من ابنة عمها . وتستقبلهما الفتاتان استقبالا سيئاً لأنهما لا تبيحان فكرة الزواج إلا بعد سلسلة من المقدمات والمغامرات الخيالية . . ويثأر الشريفان بأن يرسل إلهما خادميهما متتكرين فى زى ماركيزين يتحدثان إلهما بالأسلوب الذى يروقهما . . ثم يقبل السيدان ويهالان على خادميهما بالعصا ، ويجردانهما من ثيابهما ، ويتركان الفتاتين ذليلتين بينما يثور الثرى ويؤنبهما على سوء سلوكهما الذى جر عليهما هذه النهاية الشائنة . . وهذه المسرحية تتناول بالنقد المجتمع الذى عاش فيه مولير ، والذى انتشرت فيه الخدلة بين النساء بتأثير « الصالونات » الأدبية . . وقد أصابت فى الصميم فساد الذوق الذى بدأ يعم ، والتكلف الذى أخذ يضرب أطنابه . وإذا كان مولير يرتفع بمستواه فى هذه المسرحية عن المسرحيات المزلية التى ألفها قبل ذلك فانه لا يزال - مع ذلك - بعيداً عن الفن الكوميدي الأصيل الذى سوف يخلقه .

٢ - « طرطوف » :

وموضوع هذه المسرحية هو : النفاق الدينى والآثار الوبيلة التى يجرها على أسرة آمنة ؛ رب أسرة غر يشفق على رجل بائس يتصنع الورع فىأويه فى بيته . . وينقسم أعضاء هذه الأسرة فريقين : أحدهما يضيق بوجود « طرطوف » ويشك فى صدق نياته ، والآخر يتعصب له تعصباً أعمى ، ويقرر رب الأسرة الساذج تزويج ابنته من الدخيل المرائى بالرغم من معارضة الفريق

شنت عليها خمس سنوات ، إذ لم يمنح لويس الرابع عشر إذنه بتمثيلها أمام الجمهور إلا في سبتمبر ١٦٦٨ .

٣ - « المتزمت » (١) :

مسرحية بالشعر من خمسة فصول ذات موضوعين : أحدهما أساسى ، وهو تصوير متزمت وقع فريسة حب امرأة لعوب ، والآخر هجاء للطبقة الأرستقراطية . ويعتبر بعض النقاد هذه المسرحية أروع ما كتب مولير على الإطلاق ؛ وهى تتناول بالتحليل العديد من العواطف والانفعالات الإنسانية : التسامح المفرط (فيلانت Philinte) - الدلال العايب (سيليمان Célimène) - النيمة (سيليمان وأتباعها) - تصنع الحياء (ارسينويه Arsinoé) - الغرور (أورونت Oronte) - الغطرسة (الماركيزان) - الحب التافه (أورونت ، أكاست ، كليتاندر Oronte, Acaste, Clitandre) - وبجانب هذه العيوب والآفات توجد بعض الفضائل ذات الطابع العام كذلك : الصراحة واستنكار الشر (السيست Alceste) - الاخلاص والاعتدال فى التسامح (اليانت Eliante) - الحب الجاد العميق (السيست Alceste) .

٤ - « البرجوازي الشريف » (٢) :

مسرحية بالنثر من خمسة فصول ، وموضوعها الغرور الطموح لدى أحد البرجوازيين . ويمكن اعتبارها من فصل واحد كبير تتخلله فواصل من الموسيقى والرقص ، وهى بهذا فريدة فى نوعها فى

إنتاج مولير . وإذا نظرنا إلى تطور الحوادث فيها أمكننا تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء :

أولاً : الفصلان الأولان ؛ وهما يكوّنان ما يشبه ملهاة قائمة بذاتها تحتوى على مزيج من الكوميديا والحزل (يعرض علينا مولير أولى حقايات السيد جوردان Jourdain كمقدمة للاستغفال الذى سيكون ضحيته) .

ثانياً : الفصل الثالث والنصف الأول من الفصل الرابع ؛ وهذا الجزء يحتوى على كوميديا عادات (هجاء ضد أمثال السيد جوردان فى القرن السابع عشر بفرنسا) وكوميديا شخصيات (تصوير للغرور والطموح) ثالثاً : نهاية الفصل الرابع والفصل الخامس ؛ وهذا الجزء يشمل الحزل التركى .

وقد قبلت هذه المسرحية بفتور نظراً إلى أن لويس الرابع عشر لم يثن على مولير وإنما التزم الصمت بعد تمثيلها أمامه ، الأمر الذى أطلق ألسنة رجال القصر بالنقد اللاذع الذى يدنو من السباب . . وحزن مولير ولا سيما أن الملك كان قد اطلع على نص المسرحية وأقره . وبعد يومين استدعاه لويس الرابع عشر وقال له « إننى لم أكلمك عن مسرحيتك فى أول عرض لها لأنى خشيت أن تكون قد خدعتنى الطريقة التى مثلت بها . ولكنك فى الحق لم تفعل شيئاً لم يمتنعى ؛ إن مسرحيتك ممتازة » . وإذا برجال القصر الذين جرّحوه بالأمس يزجون إليه أرق المديح ! ! (مثلت هذه المسرحية ثمان وأربعين مرة خلال عشرة أشهر) .

٥ - النساء العالمات :

مسرحية بالشعر من خمسة فصول تصور تصنع فئة من النساء وحذلقتهن وما يجر ذلك من عواقب وخيمة على إحدى الأسر البرجوازية . . الحركة تدور حول مشروع زواج هانرييت (Henriette) من كليتاندر

(١) ترجمها محمد عثمان جلال فى عام ١٨٢٨ تحت عنوان « الشيخ متلوف » . وقد استعمل فيها اللغة العامية ، وغير أسماء شخصياتها ، وتصرف فى ترجمته تصرفاً لا يبعدها كثير عن الأصل . وقد نشرها مع ثلاث كوميديات أخرى لمولير هى : النساء العالمات ، و « مدرسة الزوجات » و « مدرسة الأزواج » .

(٢) ترجمت إلى اللغة المصرية بتصرف ، ومثلت فى العام الماضى فى مسرح العروبة بعنوان « محدث نعمة » .

(Clitandre) ... الحوادث تتولد عن الجهود التي تبذلها - من ناحية - المتحذلقات الثلاث وهن الأم فيلامنت وأختها بيليز وابنتها ارماند (Philaminte, Armande) Bélise, من أجل تزويج هانرييت من متحذلق مثلهن يدعى تريسوتان (Trissotin) ، والجهود التي يبذلها - من ناحية أخرى - الفريق المعارض ، أي الأب كريزال (Chrysale) وأخوه اريست (Ariste) والخادمة مارتين (Martine) من أجل إنجاح مشروع زواج هانرييت من محبوبها كليتاندر ... والعقدة تتكون في الفصل الثاني حين يوافق الأب - دون علم زوجته - على زواج ابنته من كليتاندر .. والحل يظهر في الفصل الأخير حين يلجأ اريست (Ariste) إلى حيلة تكشف نيات المتحذلق تريسوتان : تصر فيلامنت على تزويج ابنتها من تريسوتان وترسل في طلب موثق العقود ، ويدخل اريست فيعلن نبأ افلاس والد الفتاة .. هنا نخفي تريسوتان ، فيقرر اريست أن النبأ الذي أعلنه كان خاطئاً .. وتزوج هانرييت من كليتاندر .

وهذه المسرحية من أجود مسرحيات موليير وهي تتضمن آراء موليير في تعليم المرأة .

٦ - مريض الوهم :

مسرحية بالنثر من ثلاثة فصول .. ارجان (Argan) مريض بوهمه ، وهو أناني ونخيل .. يريد أن يجبر ابنته انجيليك (Angélique) على الزواج من ابن طبيب يتميز بالادعاء والجهل .. وتعد الخادمة طوانيت (Toinette) بمساعدة الفتاة في محنتها مع أبيها .. وفي نفس الوقت تضاعف زوجة الأم بيلين (Béline) رعايتها لزوجها وتدليلها له ، فيرسل في طلب موثق العقود ليسجل حرمان ابنته من الميراث لصالح بيلين .. ثم يقبل الطبيب ديافواروس (Diafoirus) ليقدم ابنه توماس (Thomas) . . وترفض الفتاة

الزواج من هذا الشاب الأحمق . . ثم يعلم أرجان من ابنته الطفلة لوزون (Louison) أن شقيقتها انجيليك تقابلت مع محبوبها كليانت (Cléante) ، فيثور ويقرر الزج بالمسكينة في أحد الأديرة إن هي أصرت على رفضها . . ثم يحاول شقيقها بيرالد (Béralde) نفي أبيه عن عزمه ، وتحاول الخادم أن تثير في نفسه التقزز من الطب والأطباء فتتنكر في زي طبيبه بورجون (Purgon) وتشر عليه بأن يتر من جسمه ذراعاً ليقوى ذراعه الآخر ، وأن يفتق إحدى عينيه لتشتد حدة بصره في عينه الأخرى . . ويلقى الابن على هذه « الإشارة » بأن « جميع كبار الأطباء هكذا » . . وتفشل جميع الجهود أمام عناد الأب فيلجأ الابن والخادمة إلى حيلة فعالة : يقنعان أرجان بتصنع الموت ليختبر عواطف كل من زوجته وابنته نحوه . . أما الزوجة فتظهر فرحتها في قحة ، وأما انجيليك فتستبد بها اللوعة . . وتعذل الفتاة المخلصة عن مشروع زواجها من محبوبها كليانت احتراماً للرغبة التي كانت عند أبيها « قبل وفاته » . . ثم يفتح أرجان عينيه ، ويعد ابنته بتزويجها من كليانت إن هو احترق مهنة الطب ! !

والكوميديا في هذه المسرحية تبرز خاصة في تحليل شخصية أرجان ، ذلك الرجل السليم البنية الذي يتوهم أنه مريض ، ويحيط نفسه بالأطباء ، ويفرط في تناول العقاقير (يتناول في شهرين عشرين مليئاً واثنين وثلاثين حقنة شرجية !) .

(٤)

وأحداث مسرحية البخيل تدور في باريس ، وأهم شخصياتها: البخيل هارباجون (Harpagnon) ؛

(١) لا يفوتنا ونحن نتكلم عن روائع موليير أن نذكر أسماء بعض مسرحياته التي يعتبرها النقاد في المرتبة الثانية ، مثلاً : « مدرسة الزوجات » (١٦٦٢) - « دون جوان » (١٦٦٥) - « الطبيب بالإكراه » (١٦٦٨) - « انفيتر يون Amphytrion » (١٦٦٨) .

وابنه كليانت (Cléante) ؛ وابنته ايليز (Elise) ؛
وشريف من نابولي يدعى انسيلم (Anselme) ؛ وابن
هذا الشريف ، فالير (Valère) ؛ وابنته ماريان
(Mariane) ؛ وسمسار يدعى السيد سيمون (Maître Simon)
؛ وامرأة تقوم بدور « الخاطبة » تدعى
فروزين (Frosine) ؛ والسيد جاك (Maître Jacques)
وهو في خدمة هارباجون يجمع بين وظيفتي « عربي »
و « طباخ » ؛ وخادم كليانت واسمه لافليش
(La Flèche) .

الموضوع هو تصوير البخل . . والأحداث تتأق
بمشروعات الزواج التي يكوّنها هارباجون من ناحية ،
وتلك التي تداعب خيال ابنه وابنته من ناحية أخرى . .
والبخل هو المحور الذي تدور حوله كل هذه الأحداث . .
والعقدة تتكون في اللحظة التي ينبئ فيها هارباجون
ابنيه بمشروعاته المتعلقة بالزواج . . والحل يتم في النهاية
بتدخل الشريف انسيلم .

في الفصل الأول : تتفق ايليز مع فالير على الزواج ،
وتدبر معه حيلة يدخل بها في خدمة أبيها ، فيقبله
هارباجون في وظيفة مدبر لشئون بيته بدون أجر ؛
ويرغب كليانت - من ناحيته - في الزواج من ماريان
ولكن تحقيق مشروعه يصطدم بشح أبيه . . إن هارباجون
يمتلك مالا وفيراً يخفيه في صندوق ويخشى أن يكتشفه
أحد . . ويستوثق البخل من أن ماله لم يمس ثم يعود
ليطلع ايليز وكليانت على مشاريعه : إنه يعتزم أن
يتزوج هو من ماريان ! وأن يزوج ابنته من الشريف
انسيلم الذي سيعفيها من المهر ! وأن يزوج ابنه من
أرملة غنية !

وفي الفصل الثاني : يبحث كليانت عن وسيلة
لاقتراض بعض المال . . ويسعى خادمه لافليش لتدبير
هذا المال بمساعدة السمسار السيد سيمون . . ثم يجمع
هذا السمسار الشاب بالمراني الذي ارتضى إقراضه ما
ما يريد بعد أن فرض شروطاً قاسية ، وإذا بكليانت

يجد نفسه أمام أبيه وجهاً لوجه ، فالمراني ليس سوى
هارباجون نفسه . . وبعد أن يتحدث النقاش بينهما ،
يعود هارباجون إلى بيته ليلتقي بالوسيطه فروزين
التي أقبلت لتطلعه على نتائج مساعيها المتعلقة بمشروع
زواجه من ماريان ، ولتبرز منه بعض المال بفضل
تقريبها وتملقها وما تسوق من أنباء مضللة . . لقد
وفقت في انعاش مزاج هارباجون ، ولكنها أخفقت
في الحصول منه على قطعة واحدة من النقود لأنه أصم
أذنيه ، فغادرته وهي تدعو عليه بأن « تخفه الحمى » .

وفي الفصل الثالث : يوافق هارباجون على أن يقيم
وليمة احتفالاً بزواجه من ماريان ! ! على ألا تكون
هذه الوليمة باهظة التكاليف ! ويظهر شحه الشديد في
التوصيات التي يدلي بها إلى خدمه وابنيه . . وتصطحب
فروزين ماريان إلى بيت هارباجون ، ولا تكاد هذه
الأخيرة تطل على وجهه حتى تنقزز من دمايته . .
وتدهش الفتاة إذ تجد الابن - وهو غريم أبيه - حاضراً . .
إلا أن هارباجون يجهل مشروع كليانت . . وتسعد
ماريان بهذا الالتقاء ، ويعين كليانت في الاهتمام بها
والاشادة بحسن اختيار أبيه بعبارات يصب فيها إعجابه
هو بطريقة بلغة تفتن الفتاة إلى مغزاها . . ويلمح
الخاتم الكبير الذي في أصبع أبيه فيخلعه في رفق ليريه
لماريان ، وما إن يستقر في إصبعها حتى يتوسل إليها أن
تحتفظ به كهدية من صاحبه ! ويتمتع لون البخل
ولكنه لا يملك أن يقول شيئاً أمام الفتاة ، وإن كان قد
كال لابنه أقذع السباب في الخفاء .

وفي الفصل الرابع : يرتاب هارباجون في نيات ابنه
كليانت إثر موقفه إزاء ماريان ، فينفرد به محاولاً أن
ينتزع منه اعترافات تكشف له الأمور . . يسأله عن
رأيه في ماريان فيجيب بأنها مدللة ، ضحلة الذكاء ،
تافهة العقلية . . ويتصنع هارباجون الأسف : إن
التفكير هداه إلى الاقلاع عن مشروع زواجه من
ماريان بسبب الفارق الكبير في العمر بينهما ، ولقد

إلا حين يعود كليانت فيعترف بأن الصندوق لديه ،
ويشترط لرده أن يوافق أبوه على زواجه من « ماريان » ،
وتتدخل « ماريان » فتطلب أن يوافق « هارباجون »
كذلك على زواج « فالير » من « إيلز » . . . ويفرض
البخيل بدوره شرطاً : أن يستوثق قبل موافقته من أن
يداً لم تعبت بما تحتويه خزانته . . . ويخطر « انسيلم »
(والد فالير) بأنه لن يستطيع منح ابنته مهراً . . . ويحتم
عليه أن يتكفل بنفقات الزوجين . . . ويوافق « انسيلم »
على جميع شروط « هارباجون » بما في ذلك تكفله
باعداد ملابس جديدة ليرتديها البخيل في حفل
الزفاف ! . . . وتعم السعادة جميع الحاضرين إلا شخصاً
واحداً هو رجل الشرطة ، الذي يأتي « هارباجون » أن
يدفع له « أتعابه » . . . ويرتضى « انسيلم » أن يتولى هو
دفع هذه الأتعاب ، بينما يصبح « هارباجون » في نشوة
الفرح : « وأخيراً فاني ذاهب لأعيد النظر إلى خزانتي ! »

(٥)

عُرِضَت مسرحية البخيل في « مسرح القصر
الملكي » (Palais-Royal) في ٩ سبتمبر ١٦٦٨ ،
وبعد أن مثلت تسع مرات اختفت ولم يستأنف تمثيلها
إلا بعد شهرين . ويقال إنها قوبلت في البداية بفتور من
الجمهور ؛ ويعزى هذا الفتور إلى أنها كتبت بالثر
فخرقت بذلك (مثل مسرحية دون جوان مثلاً) إحدى
قواعد المسرح الكلاسيكي ؛ إذ كان العرف يقضى
بأن تكتب المسرحيات الجادة بالشعر ، وأن يترك الثر
للمسرحيات الفكاهية (la farce) ؛ والواقع أن
رواية البخيل أدهشت التقليديين وأثارهم فصاحوا
قائلين : « أجنون مولير هذا ؟ . . . أيعتبرنا حيوانات
إذ يفرض علينا خمسة فصول بالثر ؟ ! . . . » . ويقال
إن راسين (Racine) قال لبوالو (Boileau)
حين التقى به ذات مرة : « لقد لمحتك أخيراً في مسرحية
مولير ، ولاحظت أنك كنت المنفرد الوحيد الذي

حسب أن ابنه أكثر لياقة منه ! . . هنا يعترف كليانت
بما بينه وبين ماريان من حب متبادل . . . ويطير صواب
هارباجون ، ويدور بينه وبين ابنه حوار عاصف . .
وتسود الدنيا في نظر كليانت ، ثم يتلأل الأمل في
نفسه : فها هو خادمه « لافليش » يهرول إليه ويلقي
في أذنه نبأ خطير : لقد سرق الصندوق الذي يحوى
مال البخيل حين كان هارباجون منهمكاً في حديثه
مع كليانت ، وهو يضعه تحت تصرف سيده ليعينه
على بلوغ مرماه . . . ثم يظهر هارباجون بعد أن اكتشف
السرقة . . . إنه في حالة يرثى لها ، وهو يردد ويزبد ،
ويتوعد الدنيا كلها ، بل يهدد نفسه بالشنق إن هو
لم يعثر على ما سرق منه .

وفي الفصل الخامس : يُفْتَح التحقيق فيتهم هارباجون
الناس جميعاً . . . ويبدأ رجل الشرطة مهمته باستجواب
السيد جاك الذي يوجه الرية نحو فالير — (مدبر شئون
البيت) لأنه لم يكن على وئام معه — إذ يدعى أنه
أبصره في الحديقة و (حيث كان يوجد الكنز) . .
ويلوم هارباجون فالير على استغلاله طيبته ، ودخوله
بيته بنية خيانتة . . . هنا يقع التباس غريب . . . هارباجون
يتكلم عن خزانته ، وفالير يتكلم عن محبوبته إيلز . .
ثم يفتن البخيل إلى ما يعنيه فالير بقوله « إنه على استعداد
لأن يموت من أجل عينها الجميلتين » فتتضاعف ثورته
ضد فالير الذي يغضب بدوره فيكشف عن شخصيته
الحقيقية : إنه ابن شريف من نابولي يسمى دون توماس
دالبورسي (Don Thomas d'Alburci) . . . ويقول انسيلم
لفالير إنه صديق لذلك الشريف ، ويطلب إليه اثبات
ما يزعم . . . ويظهر فالير خاتماً صغيراً من الياقوت
وسواراً من العقيق (كان فالير قد حاول عبثاً العثور
على أبيه بعد أن نجا من الغرق) . . . وتسمع ماريان
وترى فتعاقب فالير ، إنه أخوها ، ويعانقه انسيلم ،
إنه أبوه ! . . ويطلب هارباجون إلى انسيلم أن يدفع قيمة
« ما سرقه منه فالير » ! . . ولا تكشف حقيقة السرقة

يضحك ! » . . . وربما قصد بوالو أن يقول إن رواية البخيل في جوهرها مأساة لا ملهاة ، الأمر الذى زعمه كثيرون (سنتعرض لذلك بعد حين) . . . ويزعم فولتير أن مولير كان قد اعتزم كتابة مسرحيته بالشعر ثم رضى لرجبة ممثليه الذين أقنعوه باستعمال النثر فى صياغتها . والحق أن النثر يسهل مهمة الخرج والممثل على السواء ، فهو يسمح بتعديل النص بالإضافة أو الحذف دون تشويهه ، ثم إنه لا يجبر الممثلين بالتقيد — فى بعض الفقرات — تقيداً حرفياً ، كما حدث بالنسبة لمحتويات قائمة الطعام التى كان هارباجون يعدها لوليمة الزفاف والى كان ممثلو فرقة مولير يضطرون فيها أحياناً إلى الارتجال (طبعة عام ١٦٨٢ هى التى حددت نهائياً تفصيلات هذه القائمة) .

ويعيب بعض النقاد على مسرحية البخيل « رداءة صياغتها » ، فيزعم سارسيه Sarcey مثلاً أن المشهدين الأولين مثلاً مجردان من الحركة المسرحية ، وأنهما يزخران بالعبارات التى يصعب على الممثلين النطق بها بسبب امتلائها بالجمل الاعتراضية وافتقارها إلى الوضوح ، كما يزعم أن الأسلوب بوجهة عامة أقل مسرحية فى « البخيل » منه فى مسرحيات مولير الأخرى التى بالنثر ، وإن كان يعترف بأن دور « هارباجون » — على العكس — متماسك ومصوغ صياغة مسرحية ممتازة .

ويعيب آخرون على مولير مبالغته وتهويله فى بعض تفصيلات مسرحيته ، مثلاً حين يتهم هارباجون الخادم بالسرقة ويطلب إليه أن يفتح يديه ، ثم أن يفتح يديه الآخرين ! . . . ولكنهم ينسون أن المسرح مرآة مُكَبَّرَةٌ ؛ ويرد عليهم رينيه بريه (René Bray) بأن العالم الكوميدي يختلف عن عالم الحياة ، وأن الحقيقة فهما لا تقاس بمقياس واحد ، والدليل على ذلك أن النظارة لا يفكرون فى لا منطقية ما يطلبه هارباجون من لافليس (La Flèche) وإنما ينفجرون

بالضحك بدافع من هذه اللامنطقية بالذات .

ماذا يدين به مولير — فى مسرحية البخيل — لسلفه من الكتاب . . . إنه أجزأ من تصدى لرذيلة البخل . صحيح إنه استعار موضوعه من بلوت (Plaute) ؛ إلا أننا ندرك مدى استفادته من تجارب القرون العشرين التى انصرفت منذ حياة هذا الكاتب اللاتينى ، فلقد أفاد كذلك مما نجح فيه كتاب آخرون سبقوه أمثال لاريفيه (Larivey) وبواروير (Boisrobert) . . . أخذ فكرة تصوير البخل عن بلوت (مسرحية بلوت تسمى L'Aurilaire أو القدير) ولكنه غير ظروف حوادث مسرحيته وجعل شخصية بخيله هرباجون تختلف تماماً عن شخصية بخيل بلوت « (أوكليون Euclion) بالرغم من التفاصيل العديدة التى تتشابه فى كلتا المسرحيتين : فارتضاء ميجادور (Mégadore) الزواج من ابنة أوكليون بلا مهر تقدمه إليه هو الذى أوحى إلى مولير بما قاله على لسان فالير (Valère) فى الفصل الأول من أن الفتاة ينبغي أن ترتضى الزواج بلا تردد من رجل يتقدم إليها ويوافق على الاقتران بها بلا مهر . . .

ورغبة هارباجون فى طرد لافليس (خادم كليانت) تذكر بافتتاحية مسرحية بلوت التى يظهر فيها أوكليون وهو يريد طرد خادمه . . . وفى Aululaire يخفى القدير ، المحتوية على مال أوكليون ، أحد العبيد ، وفى « البخيل » يسرق أحد الخدم صندوق « هرباجون » . . . وفى المسرحيتين يصاب كل من « أوكليون » ، و « هرباجون » من جراء السرقة بموجة من اليأس العنيف . . . ويستوحى مولير حوار هرباجون الداخلى (مونولوجه) من مسرحية « بلوت » بطريق مباشر . . . وتشابه المسرحيتان كذلك من حيث ذلك الالتباس الذى وقع حين كان الأب يتحدث عن سرقة كنزه بينما كان محدثه يتكلم عن محبوبته التى يريد الزواج منها . واستفاد مولير أيضاً من مسرحية لاريفيه (Larivey)

تسمى «أرواح» Esprits التي قلد صاحبها هو الآخر «بلوت» بابتكار ملحوظ : جعل مولير من «هارباجون» — مثلاً فعل لاريفيه بالنسبة لسيفران (Séverin) — بخيلاً ثرياً ساذجاً في عواطفه .. واستعار ختام مسرحيته من ختام مسرحية «أرواح» .. على أنه لا ينبغي أن نبخس مولير حقه : فابتكاره في تقليد مسرحية «بلوت» يفوق ابتكار لاريفيه في تقليدها ؛ ثم إن شخصية بخيل «مولير» مدروسة بطريقة أدق وأعمق من تلك التي درست بها شخصية بخيل «لاريفيه» ؛ وإذا كان «سيفران» بخيلاً وشريراً وجباناً فإن الشح يظل على مر الأحداث أبرز مقومات شخصية «هارباجون» .

وما دمنا نحاول أن نعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله فيتحمم علينا أن نذكر كذلك أن مولير قد استعار مشهداً من إحدى روايات «بواروير» (La Belle Plaideuse) ، ذلك المشهد الذي يظهر فيه أحد كبار المراهبين في باريس (هارباجون) وجهاً لوجه مع ابنه الذي كان قد لجأ إليه عن طريق أحد الوسطاء دون أن يدري أنه أبوه .. وأن المساعي التي تقوم بها «الخاطبة» فروزين (Frosine) والحيل التي تدبرها كثيراً ما يوجد مثلها في المسرح الإيطالي .

على أن الشيء الحيوى في هذا الصدد هو أنه لا ينبغي الإسراف في تقدير اقتباسات مولير والمبالغة في تفسيرها ؛ صحيح أن أعداءه يتهمون به بأنه سرق من الكتب القديمة نصف ما كتب .. ولكن الأصح من ذلك هو أنه أكثر عباقرة عصره خلقاً وإبداعاً ، بالرغم من أنه ربما كان أكثرهم تقليداً ! وإذا كانت اقتباساته تأتيه عفواً مما رسخ في ذاكرته من القراءات العديدة ، فهي تتشكل بفضل قلمه المبدع الذى يستمد خصوبة مادته أولاً وقبل كل شيء من التأمل في سلوك الناس .

هل بنيت كوميديا البخيل على موضوع تراجيدى ؟ يقول جوته (Goethe) : «إن «البخيل» ، من

بين جميع مسرحيات مولير — التي تقضى فيها الرذيلة كليةً على الرحمة التي تربط بين الأب وابنه — تتميز بعظمة نادرة ؛ وهى تراجيدية إلى حد كبير» .. هذا صحيح ، ولكنها ملهاة على كل حال . نعم إنها تتضمن مواقف صارمة أو عنيفة كهذه : أب يصغر في أعين أبنائه ، ويفقد احترام جيرانه وخدمه .. فتاة تضلل أباهاً بأن تدبر إلحاق حبيبها بوظيفة في بيت أسرته .. ابن يعد سمسار الربا بأن والده سيموت — إن لزم الأمر — قبل ثمانية أشهر ! .. الخ ، ولكن مولير يحد من الخسائر : الأسرة مهددة ، ولكنها لم تتبدل ولم تهدم .. وهو يحول بيننا وبين التفكير في تراجيدية الموضوع بالمواقف الهزلية التي يبرزها هنا وهناك في شتى مشاهد المسرحية : بخيل مرأى يقول له الوسيط إن الشاب الذى يلتمس الاقتراض يتعهد بأن يموت والده عما قريب ، فبرد في بشاشة حمقاء : «هذا شيء له قيمته» ، دون أن يدري أنه يقصد نفسه ، لأن الشاب ليس في الواقع إلا ابنه دون علم منه هو الآخر .. ألا تستحيل هذه العبارة من عبارات «هارباجون» الصارمة الممقوتة إلى شيء يثير الضحك ؟ وحين يتمنى «هارباجون» موت نفسه ، ألا يثير الضحك كذلك ؟ لو أنه تمنى موت الآخرين لكانت عبارته — على العكس — بغیضة ، مستنكرة ، مثيرة للتعزز . مسرحية البخيل كوميديا لاتخفى المראה التي قد تقنع الهزل . ومولير ينظر إلى الحقيقة البشرية بعين شاعر كوميدي ؛ قد تكون هذه الحقيقة مؤلمة ، ولكنه يهدف من تصويرها لنا لإضحاكنا ، لأنه إنسان ؛ والإنسان حيوان ضاحك ! .

(٦)

مولير رجل الطبيعة الإنسانية . : صحيح أنه ينتمى إلى عصره الذى صور أبرز ملامحه تصويراً أصدق من كل ما عدها ، ولكنه — مع ذلك — أكثر كُتَّاب هذا العصر تحوراً .. أكثر تحوراً حتى من كُتَّاب كراسين

(Racine) و بوالو (Boileau) ، مع أنهما يصغرانها بأربعة عشر عاماً . . العيوب والردائل التي تصدى لها كانت منتشرة في القرن السابع عشر ، ولكنه حللها تحليلًا يجعل من شخصياته نماذج بشرية خالدة . . لقد تغلغل في النفس الإنسانية، وسبر غور قلب الإنسان في كل الأزمان وكل البلاد ؛ من هنا ينتمى إلى جميع الأزمنة أيضاً . . يقول سانت بيثف : « إن وجه مولير وإنتاجه يظهران في القرن السابع عشر ، ثم يخرجان منه . . وإن فكره يتخطى هذه الحدود لأنه عالمي » . . ويقال إن الممثل الإنجليزي كمبل (Kemble) استكثّر على فرنسا شرف انتماء مولير إليها ، فقال - حين زار باريس - في حفل التكريم الذي أقامه له زملاؤه الفرنسيون : « إن مولير لا يتبع أى شعب من الشعوب ، إنه عبقرية الكوميديا على الإطلاق، وقد قُدِّرَ لها أن تظهر في فرنسا » .

ومن المؤكد أن إنسانية إنتاج مولير ترجع إلى أنه يؤسس سخريته وهجومه على فكرة مؤداها أن الطبيعة خيرة وحكيمة ، وأن الرذائل والعيوب تشوهها ، في حين أن هذه الطبيعة إن آتبت كانت مصدر الصواب ودعامة الاعتدال . . والفضائل التي توحى بها لا ينبغى النظر إليها على أنها مواقف بطولية ، وإنما على أنها ضرورات تقتضيها حاجة الناس إلى التعايش؛ يقول في مسرحيته « مدرسة الأزواج » (L'Ecole des maris) : « ينبغى على الإنسان ألا يشذ بسلوكه عن غالبية أئداده . وإن من الأفضل أن يتبع عن طيب خاطر فئة المحنّين - إن كانت تشكل الكثرة - عن أن يقف ضد الجميع وحيداً في معسكر العقلاء » . . كوميديا مولير إذن تريد أن تكفل التوازن في حياة الفرد مع الجماعة ، وهي - تبعاً لهذا - تهدف إلى تحقيق نوع من النظام ؛ يقول أندريه روسو (André Rousseaux) : « يزعم بعض الناس أن الحياة حلم ، ويرى آخرون أنها خرافة ، ولكنها بالنسبة لمولير نظام مفقود . . ووسط بقايا هذا

النظام المتناثر على أرض البشر ترسم الكوميديا طريقها « وحسبنا أن نورد بعض تلك الأحكام - وهي تُعد بالآلاف - التي أصدرها عن مولير أعلام الأدب وعباقرة الفكر :

بوالو (Boileau) ، في القرن السابع عشر ، إثر موت مولير :

+ « إن الكوميديا المستحبة قد أذهلت ،
+ « وعبثاً حاولت أن تفيق من صدمتها البالغة العنف ،

+ « ولقد عجزت عن الوقوف على قدميها » .
فولتير (Voltaire) ، في القرن الثامن عشر :

« إن مولير - إن أمكن القول - مُشرّع اللياقة في العالم » .

شامفور (Chamfort) ، في القرن الثامن عشر :

« إن مولير فريد في نوعه ، وإن العرش الذي كان يترعب عليه لا يزال شاغراً » .

ويناجي الفريد دى موسيه Alfred de Musset
- في القرن التاسع عشر - ذكرى مولير في الأبيات التالية :

+ « يا أستاذنا جميعاً ، إذا كان قبرك مغلقاً ،
+ « فدعني أبحث في ثراك النابض بالحياة ؛
+ « عن شعاع . . . وأقلدك .

وبلغ بشدة إعجاب جوته بمولير Goethe

- في القرن التاسع عشر - أنه كان يعيد قراءة إنتاجه مرة كل عام ، يقول : « إن مولير من العظمة بحيث يشعر الإنسان كلما أعاد قراءته بدهشة جديدة . إنه رجل كامل وفريد . . وفي مكان آخر : « يا لسمو نفسه ، يا لصفائها ! . . إني أعرف مولير وأحبه منذ شباني ، ولقد ظللت أتعلم منه طوال حياتي . وإن

ما يفتننى فيه ليس فحسب كمال تجربته كفنان ، ولكن أيضاً سمو ثقافة نفسه كشاعر .

ويضعه سانت بيثف Sainte-Beuve — في

القرن التاسع عشر — بين أعظم عباقرة الإنسانية ، يقول في ختام بحث عميق عنه : « سوف تتعدد في المستقبل الشهرة والعقريات والكتب ، وسوف تتغير صور الحضارات إن استمرت ، ولكن توجد خمسة أو ستة أعمال دخلت في أعماق الفكر الإنسانى التى لا تبدل . وإن كل شخص يضاف إلى زمرة من يحسنون القراءة هو قارئ جديد من قراء موليير » . . . « لقد كان موليير يهدف إلى تقويم الإنسانية ومواساتها في وقت واحد » .

بيير بريسون (Pierre Brisson — معاصر) :

« إن إنتاج موليير الذى تتحرك فيه قرابة ثلاثمائة وخمسين شخصية هو صورة عصر أقل من كونه تعبيراً عن عقيدة . . إنه ليس حقيقة زمن ولا حقيقة فن وإنما حقيقة إنسان » .

جون شربنتييه John Charpentier — معاصر)

« إن إنساناً كموليير هو نعمة يُرزق بها شعب . . وإن مجرد التفكير فيه والتقى أن يُبعث بأعجوبة ليحقق جزءاً من الشفاء من العلل التى يشكو منها الإنسان أو يحس بالصغار لإصابته بها » .

سأل لويس الرابع عشر ذات يوم بوالو : « ترى من هو الكاتب الذى شرف عهدي أكثر من غيره ؟ » فأجاب بوالو من فوره : « مولاى ، إنه موليير » . . واستطرد الملك قائلاً : « لم أكن أحسب ذلك ، ولكنك أعلم منى فى هذا المجال » . . وإذا كان جثمان ذلك العبقري قد سووم — كما ذكرنا — على رقعة الأرض التى سيدفن فيها ، فإن التاريخ لم يساوم لإنتاجه على ما يستحقه من مجد تضاعف مع تعاقب الأجيال . . وإذا كانت الأكاديمية الفرنسية قد بنحته حقه فى حياته

إذ أغفلت ضمه إلى زمرة أعضائها ، فقد أحست بعد مماته بالخسارة الفادحة التى لحقت بالأدب والمسرح والفكر الإنسانى . إنها تسمى أعضائها فى حياتهم « الخالدين » ؛ وكثيرون منهم — مع ذلك — لا يخلدون بعد موتهم ! أما موليير فقد أجبرها على الاعتراف بعظمته بعد أن مات ! لقد أقامت له فى حرمها تمثالاً نصفياً كتب عليه هذا البيت الرائع فى بلاغته :

لا شئ ينقص مجده ، ولقد كان هو ينقص مجدا !

(٧)

مشاهد من مسرحية البخيل :

١ — ترفض ايليز (Elise) مشروع تزويجها من رجل مسن لا يشترط دفع مهر ، ويعجب والدها (هارباجون) ويحتكم إلى فالير (Valère) . . يدور بين ثلاثهم الحوار التالى :

هارباجون : اقبل يا فالير .. لقد اخترناك لتقول لنا : من منا على حق ، ابنتى أم أنا ؟

فالير : إنك أنت يا سيدى الذى على حق بلا شك .

هارباجون : أتعرف جيداً عن أى شئ نتكلم ؟
فالير : لا . ولكن لا يمكن أن تكون مخطئاً ، فأنت الصواب عينه .

هارباجون : أريد أن أزوجه الليلة من رجل يجمع بين الثراء ورجاحة العقل ، ولكن الصعلوكة تقول لى بجسارة : إنها لا تعبأ بالزواج منه . فما قولك فى هذا ؟

فالير : قولى ؟

هارباجون : نعم .

فالير : آه ، آه !

هارباجون : ماذا ؟

فالير : أقول إننى فى الواقع أناصر رأيك ، وإنك لا يمكن إلا أن تكون مصيباً ، ولكنها — فى الوقت ذاته — ليست مخطئة كل الخطأ ، و . . .

هارباجون : ماذا إن الشريف انسيلم (Anselme) مرشح له قيمته ، فهو نبيل من الأشراف ، وهو دمث ، رزين ، حكيم ، ثرى . . ثم إنه لا يتبقى له أحد من أبنائه الذين أنجبهم من زوجته الأولى . فهل يمكنها العثور على رجل مثله ؟

فالير : هذا حق ؛ ولكن ربما كان فى وسعها أن تقول إنك تتعجل الأمور بعض الشيء ، وإنها يجب على الأقل أن تُمنح بعض الوقت لترى إن كان من الممكن أن تتجاوب رغبها مع . .

هارباجون : إنها فرصة يجب الإسراع فى القبض عليها من ناصيتها . وإنى أجد فيها فائدة لن أجدها فى سواها ؛ وهو يتعهد بالزواج منها بلا مهر . .

فالير : بلا مهر ؟
هارباجون : نعم .
فالير : آه ! لا أزيد كلمة . فهذا سبب مقنع للغاية ؛ ويجب الرضوخ للأمر .

هارباجون : إنه بالنسبة إلى بمثابة ادخار له قيمته .
فالير : حقاً لا معارضة فى ذلك . صحيح أن ابنتك تستطيع أن تقول لك : إن الزواج مسألة أهم مما يظن الإنسان ، وإن السعادة أو التعاسة مدى الحياة تتوقف عليها ، وإن ارتباطاً مقدراً له أن يدوم حتى الموت لا يجب أبداً أن يتم إلا بحيلة كبيرة .

هارباجون : بلا مهر !

فالير : إنك محق . ومن المسلم به أن هذا يقرر كل شيء . وهناك أناس قد يقولون لك إن ميل الفتاة فى مثل هذه الظروف أمر ينبغى من غير شك أن يُنظر إليه باعتبار ، وإن عدم التكافؤ الكبير هذا فى الأعمار والأمزجة والعواطف يعرض الزواج لحوادث وخيمة .

هارباجون : بلا مهر !
فالير : آه ! أعرف جيداً أن لا رد على هذا ؛ فمن يقدر أن يعارض ؟ لا لأنه توجد فئة كبيرة من الآباء الذين يؤثرن المحافظة على رضا فتياتهم على المحافظة على المال الذى يمكن أن يمنحوه ، والذين لا يبتغون التضحية بهن من أجل المنفعة ، ويحرصون أشد الحرص على أن يكفلوا للزواج هذا التكافؤ الحلو الذى يضمن له دائماً الشرف والطمأنينة والسعادة ، و . . .

هارباجون : بلا مهر !
فالير : هذا صحيح ، وهو يرغم أى إنسان على الصمت . بلا مهر ! . أية وسيلة لرفض سبب كهذا ؟
هارباجون : (وحده ، وهو ينظر ناحية الحديقة) ماذا ؟ يخيل إلى أنى أسمع كلباً ينبح . ألا يرجع ذلك إلى أنه يراد سوء بمالى ؟ (ثم يقول لفالير (لا تتحرك ، سأعود بعد لحظة . (يخرج) .

اليز : أكنت هازئاً حين كلمته بتلك الطريقة ؟
فالير : لقد أردت أن أحقنه لأصل إلى نتيجة أفضل . فان معارضة آرائه صراحة تفسد كل شيء . هناك عقول لا يجب التأثير عليها إلا بالمداورة ، وأمزجة

هارباجون : كيف ! لقد سحرني قولك ، وأنا أريد أن يكون لك سلطان مطلق عليها . نعم ، لقد حاولت عبثاً أن تجنبني ولكنني أمنحه ما وهبتي السماء من سلطان عليك ، وأعني بذلك أن تنفذى كل ما سيقوله لك .

فالير : أريني بعد هذا إذا كنت ستقاومين توجيهاتي ! سيدى ، إني سأتابعها لأواصل النصائح التي كنت أسديها إليها .

هارباجون : حسناً ، وسأكون معترفاً بفضلك . حقيقة ..

فالير : يجدر أن أراقبها عن كثب .

هارباجون : هذا صحيح . يجب ..

فالير : هون عليك ؛ أعتقد أنني سأوفق في مهمتي .

هارباجون : افعل ، افعل . ها أنا ذاهب للقيام بجولة قصيرة في المدينة ، وسأعود بعد قليل .

فالير : نعم ، إن المال أثمن شيء في الوجود ، ويجدر بك أن تحمدى الله على الأب الذى وهبك إياه . إنه يعرف معنى الحياة . وحين يتقدم الرجل للزواج من فتاة بلا مهر لا يجب عليها أن تنظر إلى أبعد من ذلك . إن هذا الاعتبار يجبُّ كل ما عداه من الاعتبارات . وإن مجرد عدم دفع مهر يعدل الشباب والأصل والشرف والحكمة والأمانة .

هارباجون : آه ! يا لك من فتى فاضل ! إن كلامك ينم عن فطنة نادرة . وما أسعد إنساناً يكون في خدمته شاب مثلك .

(المشهد الخامس من الفصل الأول)

تنفر من أية مقاومة ، وطبائع عنيدة تثيرها الحقيقة وتتشدّد دائماً ضد جادة الصواب فلا تقاد إلى الهدف إلا بطرق ملتوية . عليك أن تصنعى الاستجابة لرغبته لتزيد قدرتك على بلوغ ما ترين إليه .

ايليز : ولكن هذا الزواج يا فالير ؟ ...

فالير : سوف نبحث عن مخرج منه .

ايليز : ولكن أية حيلة سنجد إذا كان سيعقد هذا المساء ؟

فالير : يجب أن تلتصق مهلة بتصنعين خلالها المرض .

ايليز : ولكن سيُكشف الأمر إن استدعى الأطباء .

فالير : أنسخرين ؟ هل يفهمون في ذلك شيئاً ؟ إنك تستطيعين أن تدعى أى مرض تشائين ، وسيجدون من العلل ما يشخصونه بها .

هارباجون : (على حدة ، في عودته من الحديقة) لا شيء ، شكراً لله .

فالير : ثم إن ملاذنا الأخير هو فرارك الذى يمكن أن يحميننا من كل شيء ؛ وإذا كان حبك - يا جميلتي ايليز - قادراً على عزيمة ... (يلمح هارباجون) ... نعم يجب أن تطيع الفتاة أباه . لا ينبغي إطلاقاً أن تهتم بشكل الزوج ؛ وحين يتدخل هذا السبب الوجيه « بلا مهر » ، يجب أن ترضى بما يقدم إليها .

هارباجون : حسناً ! ما أحسن هذا القول .

فالير : سيدى ، إني ألتبس منك العفو إذا

كنت قد انفعلت بعض الشيء ، وتجاسرت فخطبتها بهذه اللهجة .

٢ - الوسيط السيد سيمون يجمع كليانت بالمرابي
الذى سوف يتضح أنه أبوه :

السيد سيمون : نعم يا سيدى ، إنه شاب يحتاج إلى مال ؛ وشئونه تتعجله ، وسوف يرتضى جميع ما ستفرضه من شروط .
هارباجون : ولكن أظن يا سيد سيمون أن هذا الأمر فى مأمن من المخاطر ؟ وهل تعرف اسم من تنوب عنه وممتلكاته وأسرتة ؟

السيد سيمون : لا ، فليس فى وسعى أن أطلعك على معلومات وافية عنه ؛ إذ أننى قد متَّ إليه مصادفة . ولكنك ستستوضح كل شىء بنفسك . ولقد أكد لى مندوبه أنك سترضى عنه حين تعرفه . وكل ما أستطيع أن أقوله لك ، هو أن أسرته واسعة الثراء ، وأن والدته متوفاة ، وأنه يتعهد بأن يموت والده قبل انتهاء ثمانية أشهر .

هارباجون : هذا أمر له اعتباره . إنَّ الشفقة تحتم علينا أن نُسعد الآخرين كلما أتيح لنا ذلك .

السيد سيمون : هذا مسلم به .
لافليش : (إلى كليانت ، بصوت منخفض) :
ما معنى هذا ؟ إن السيد سيمون يتحدث إلى أهلك .

كليانت : (إلى لافليش ، بصوت منخفض) :
ترى هل يكون قد قال له من أنا ؟ وهل أنت إنسان نحوننا ؟

السيد سيمون : آه ، آه ! ، أنما متعجلان ! من أنبا كما أن المسألة تم هنا ؟ . . (إلى هارباجون) : لست أنا يا سيدى الذى ذكرت لها اسمك وعنوانك .

ولكن فى رأى أن الأمر ليس جد خطير : إنهما شخصان كتومان وتستطيعون هنا أن تتفاهموا معاً .

هارباجون : كيف ؟

السيد سيمون : إن هذا السيد هو الشخص الذى يريد أن يقترض مبلغ الألف والخمسمائة جنيه التى حدثتك عنها .

هارباجون : كيف ، أها الأفاق ! أنت الذى تعمَّد إلى أفعال الشطط الآثمة هذه ؟

كليانت : كيف يا أبى ! إنك أنت الذى تقدم على هذه الأفعال الشائنة ! (يخرج السيد سيمون ولافليش) .

هارباجون : إنك أنت الذى تريد أن تجر نفسك إلى الافلاس بعقد مثل هذه القروض المذمومة !

كليانت : أنت الذى تعمل على الإثراء بمثل هذا الربا الفاحش !

هارباجون : أتجروء بعد هذا على أن تظهر أمامى ؟

كليانت : أتنجاسر بعد هذا فتُرى نفسك للناس ؟

هارباجون : قل لى ، ألا تشعر بأذى خذى لانحدارك

إلى هذه الأعمال الفاسقة ، ولتورطك فى نفقات بشعة ، ولتبيدك بهذه الصورة الشائنة مال أهلك الذى جمعه بعرق غزير .

كليانت : ألا يحمر وجهك خجلا حين تهدر كرامة مركزك بهذه التجارة التى تعكف عليها ، وحين تضحى بسمعتك من أجل إرضاء رغبتك الجشعة فى تكديس الدرهم فوق الدرهم ، وحين تغلو - فى مجال الفوائد - فى أحط الدقائق التى ابتدعها أشهر المرابين ؟

هارباجون : اختف عن ناظرى أيها الوضع ،
اختف عن ناظرى .

كليانت : من فى رأيك أكثر اجراماً : أهو الذى
يشترى مالاً يحتاج إليه ، أم الذى
يسرق مالاً لا يفعل به شيئاً ؟

هارباجون : أقول لك اغرب عنى ولا تثر اذى .
(ثم يقول بعد أن صار منفرداً) : هذه
المغامرة لا تغضبني ، فهى تخفى على
تشديد الرقابة على أفعاله أكثر من أى
وقت مضى .

(المشهد الثانى من الفصل الثانى)

٣ - وحين يكتشف هارباجون سرقة كنزه يصاب

بما يشبه الجنون ويصبح :

« اللص ! اللص ! القاتل ! السفاك ! أيتها العدالة ،
أيتها السماء العادلة ! لقد ضعت ، لقد قُتِلت ! لقد
ذُبح ! .. لقد سرق مالى ! .. ترى من يكون
السارق ؟ .. كيف صار ؟ .. أين هو ؟ .. أين
تختفى ؟ .. ماذا أفعل للعثور عليه ؟ .. إلى أين أجرى ؟
.. إلى أين لا أجرى ؟ .. ألا يوجد هناك ؟ .. ألا
يوجد هنا ؟ .. من هو ؟ .. قف ! (يمسك بذراعه
هو) .. رد إلى مالى أيها الخسيس ! .. آه ! إنه
أنا .. إن عقلى مبلبل ، وإنى لأجهل أين أنا ، ومن
أنا ، وماذا أفعل .. ويا حسرتاه ! يا مالى المسكين ،
يا مالى المسكين ، يا مالى العزيز ، لقد حرمت منك ! .

وما دمت قد سرت منى فقد فقدت دعامتى ، وسلواى ،
وسرورى . . لقد انتهى كل شىء بالنسبة إلى ولم يعد
لى مكان فى هذا الوجود ! .. بدونك يستحيل على أن
أعيش . . . وإنى فعلاً لا أعيش . . إنى أموت . . إنى
ميت . . إنى مدفون ! .. ألا يوجد إنسان يريد أن
يبعث فى الحياة بأن يرد إلى مالى العزيز ، أو بأن يدلنى
على سارقه ؟ .. ايه ! .. ماذا تقول ؟ .. إنه لا يوجد
أحد . . لا بد وأن مقترف الفعل قد راقب الوقت
بغاية فائقة . . لقد اختار بالدقة الوقت الذى أتحدث
فيه إلى ابنى الخائن . . لأخرج . . أريد أن أذهب
لأبحث عن العدالة ، وأن أعذب كل من فى بيتى :
الخدم ، وابنى ، وابنتى وأنا نفسى . . ما أكثر هؤلاء
المتجمهرين (ينظر إلى النظارة) . . أنى لا ألقى ببصرى
على إنسان إلا ويشير الريبة فى نفسى . . كل يبدو أنه
اللس الذى سرقنى . . ايه ! .. عن أى شىء يتحدثون
هناك ؟ .. أعن الذى سلبنى مالى ؟ .. ما هذه الضوضاء
التي أسمعها فوقى ؟ .. أهو سارقى الذى هناك . .
إنى أتوسل إلى من يعرف شيئاً من أبناء سارقى أن يقوله
لى . . أليس محتبئاً بينكم . . إنهم جميعاً ينظرون إلى
ويأخذون فى الضحك . . سترون أنهم اشتركوا فى
تدبير سرقتى . . لأذهب سريعاً . . الشرطة ، القواسون ،
الحكام ، القضاة ، آلات التعذيب ، المشائق ،
الجلادون ! .. وإذا لم أعثر على مالى فسأشقى
نفسى ! » .

(المشهد الأخير من الفصل الرابع)